الاتجاه القومي لتعليم عمل واجب بعد الاستقلال

في العهد الذي كانت مصر فيه خاضعة لسلطة الاحتلال التركي أو الإنجليزي لم تكن للتعليم أهداف قومية، وكان هذا طبيعيًا معقولًا.

ولكن هذا العهد قد انقضى بعد تغير موقف مصر السياسي.

فماذا صنعنا نحن لنلائم بين اتجاه التعليم في المدارس واتجاه البلاد في طريقها الجديد؟

لم نصنع أكثر من ترقيع البرامج والنظم، وزيادة بعض مواد الثقافة، وتعديل بعض طرائق الدراسة، بينما بقي الأساس الموضوع من قبل دون تعديل، أو بتعديل خفيف يمس العرض الظاهر دون الجوهر الأصيل.

هذا الترقيع في النظم والبرامج جاء مخلًا وضارًا، فلم يبق غير النظام القديم الذي كان منطقيًا مع عصره، منطقيًا مع أغراضه، مؤديًا إلى أهدافه، ولم يستحدث نظامًا جديدًا يكون منطقيًا مع العصر الجديد مؤديًا على أهدافه الجديدة.

كثر التغيير والتبديل! وكثر رسوب التلاميذ وشكواهم، وكثر المتعطلون من المتعلمين، وكاد النظام الاجتماعي يضطرب بسبب هذا التعطل، واضطرب النظام الاقتصادي فعلًا، ولم تربح القومية المصرية شيئًا من وراء النظام المرقع البديل.

ولست هنا في مقام بيان عيوب التعليم عامة وأثرها في الأوضاع التي نشكو منها الآن وعلى من يريد الاستزادة في هذا الموضوع أن يقرأ تقرير وزير المعارف عن عيوب التعليم الثانوي، وكتاب الدكتور حافظ عفيفي باشا «على هامش السياسة» وكتاب الدكتور طه حسين بك المستشار الغني لوزارة المعارف «مستقبل الثقافة» وكتاب مريت بطرس بك «سياسة الغد» وكتاب الدكتور على عبد الواحد وافي «البطالة» وكتاب الأستاذ عبد الحميد فهمي مطر «التعليم والمتعطلون في مصر» وسواها من الكتب والتقريرات والمقالات.

إنما أريد فقط أن أتحدث عن نقص الاتجاه القومي في المدرسة المصرية وفي وسائل الثقافة المصرية من صحافة وإذاعة ومسرح وسينما.

وحين يكون على رأس وزارة المعارف نجيب الهلالي باشا صاحب التقرير المعروف، وعلى يمينه مستشارًا فنيًا، الدكتور طه حسين بك صاحب الكتاب المعروف، ننتظر أن يصنع شيء في هذا الشأن غير ما صنع من قبل، وأن يوضع للتعليم أساس جديد كامل.

وقد نشر المستشار الفني لوزارة المعارف منذ سنوات كتاب «مستقبل الثقافة»، ونحن نرتضيه دستورًا للثقافة يجب تنفيذه في عهد الاستقلال.

وهذا الكتاب مرصود كله للدكستور الثقافي في جميع مراحله، ولكن به صفحات كاملة عن الشعور القومي وضرورة بثه في نفوس الناشئة، ضمانًا للاستقلال، وللديمقراطية التي هي الثمرة الداخلية للاستقلال، فلنقتطف بعض الفقرات من هذه الصفحات.

يقول في صفحتي ٧٧ و ٧٨ من الجزء الأول: «نحن إذا فكرنا قليلًا انتهينا إلى أن من أوجب واجبات الدولة المصرية في عشرات الأعوام المقبلة –أن تحوط الاستقلال الخارجي، وأن تقر النظام الديمقراطي في داخل الحدود المصرية، ومهما يكن جهد الأفراد في حياطة الاستقلال وتثبيت الديمقراطية؛ فإن هذا الجهد ليس شيئًا بالقياس إلى الجهد الذي يجب أن تبذله الدولة؛ لأن الدولة أقدر على ذلك وأنفذ إليه وهي لم تقم بعد إلا له.

«وإذا كان أهم أعمال الدولة أن تحوط الاستقلال الخارجي؛ فإن الوسائل إلى حياطة هذا الاستقلال هي من أول واجبات الدولة ومن أهم أعمالها، وأي وسيلة إلى حياطة الاستقلال تعدل هذه الوسيلة الأساسية، هذه الوسيلة الأولى والأخيرة؛ وهي تنشئ الطفل المصري والفتى المصري على حب الاستقلال والتضحية بالنفس في حياطته والذياد عنه؟

وغذا كان من أول واجبات الدولة أن تحمي بعض المصريين من بعض؛ وأن تكفي بعضهم شر بعض، وأن تكف باس بعضهم عن بعض؛ وأن تقر فيها العدل والأمن؛ وتحقق لهم المساواة وتكفل لهم الحرية، إذا كان ذلك كله من أول واجبات الدولة وأهم أعمالها، فإن الوسيلة إلى هذا كله من أول واجبات الدولة وأهم أعمالها، وأي وسيلة إلى تثبيت الديمقراطية تعدل هذه الوسيلة الأساسية؟ هذه الوسيلة الأولى والأخيرة وهي تنشئ الطفل المصري والفتى المصري على أن يحب مواطنيه، ويؤثرهم بالخير، ويضحي بنفسه في سبيل حمايتهم من الشر وحياطتهم من الظلم، ويشعر بأن عليه واجبات قبل أن تكون له حقوق؟.

فهل مما يكفل تنشئة الطفل المصري والفتى المصري على حب الاستقلال والتضحية بالنفس في حياطته والذياد عنه، أن يتضمن برنامج المدارس الابتدائية في مادة التاريخ موضوعًا عن: «مزايا الحملة الفرنسية على مصر» ومثله من الموضوعات.

جائز أن تكون هذه الموضوعات، مما يدرس في عهود خاصة، لتؤدي إلى هدف مقصود، فما الذي يجيز لها أن تدرس في عهد الاستقلال للتلاميذ الصغار؟

وجائز أن تكون هذه حقائق تاريخية، أو أن تكون ادعاءات مقصودة للدعاية، ولكنها في كلتا الحالتين لا يجوز أن تدرسها ناشئة البلاد في صورتها هذه، ويجب أن تؤجل إلى مرحلة الجامعة عند التحقيق التاريخي، أما عهد الطفولة وعهد الشباب، فيجب أن ينقضيا في تلقين الأطفال والشبان حقائق أخرى تصور الأمجاد المصرية، وتملأ نفوسهم بالعزة القومية.

وليس ما ذكرت إلا مثلًا من أمثلة كثيرة في مادة التاريخ وحدها –وهي أهم المواد التي يُعتمد عليها في «تنشئة الطفل المصري والفتى المصري على حب الاستقلال والتضحية بالنفس في حياطته والذياد عنه».

فهل شيء من هذا كله يساعد على تنشئة الطفل المصري والفتى المصري كما ينبغي؟!

وليس شيء في برنامج الدراسة الحالي مما يبث الشعور القومي وينميه في نفوس الناشئة فالتاريخ المصري ضائع بين تواريخ الأمم الأخرى، ولا يشعر الطفل والفتى أنه تاريخ وطني تبذل له عناية خاصة ويوجه توجيهًا خاصًا، والجغرافية المصرية سريعة خاطفة مدغومة في الجغرافية العالمية، لا يحس معها الطفل والفتى أنها جغرافية بلاده وأنها يجب أن تتمتع بانتباه خاص، والمجتمع المصري الذي يطلب مؤلف «مستقبل الثقافة» أن ينشأ الطفل المصري والفتى المصري على حبه والتضحية في سبيله؛ لا تأتي سيرته إطلاقًا في برامج الدراسة، ولا ينشأ الطفل والفتى على الشعور بوجوده مجرد الشعور!

* * *

يجب إذن أن يقام التعليم وأن تقام التربية على أساس جديد، ونضرب هنا بعض الأمثال في بعض مواد الدراسة، وبعض وسائل التربية.

ففي التاريخ نرى أن الكتب التي بأيدي تلاميذ المدارس اليوم عن مصر يجب أن تنزع وتلقى بعيدًا عن متناولهم حتى لا تشوه لهم تاريخ بلادهم ولا تحيله جامدًا ميتًا لا روح يه، وحتى لا تخلق بينه وبينهم جفوة توصد نفوسهم دونه كما هو حادث الآن، إذ أن مئات الأسماء للملوك والحوادث الحربية وللأمكنة وللتواريخ الرقمية التي حدثت فيها تصد الناشئ عن هذا التاريخ وتكرهه فيه لأنه واجب ثقيل لا حياة فيه.

يجب إذن أن تختفي هذه الكتب المؤذية، واختفاؤها هو واجب وطني قبل أن يكون واجبًا عمليًا.

فإذا منعت دراسة هذه الكتب، فيجب أن تحل محلها كتب أخرى متدرجة حسب مراحل الدراسة، ففي المدارس الابتدائية تستبدل بها كتب قصصية عن حياة المصريين تصور هذه الحياة تصويرًا صحيحًا، وتشتمل على عاداتهم وتقاليديهم وبعض عقائدهم وأناشيدهم، حتى تتجسم في هذه المخيلات الصغيرة صورة شاخصة لمصر لا اثر فيها للسرد المملوك ولا للتواريخ الرقمية للحوادث إلا ما تيسر في ثنايا القصص المحبوب.

وفي المدارس الثانوية تدرس سير بعض الأبطال القدماء والمحدثين بحيث تشمل هذه السير تاريخًا للحوادث في عصرهم ووصفًا لحالة الشعب وبسطًا لعاداته وتقاليديه وديانته وكثيرًا من أناشيده في مواسمه وأعياده؛ ودرس السير الشخصية من ألذ وأمتع الدراسات، وهو فرصة لتصوير حياة الشعوب وحوادثها في خلال حياة الشخصية المدرسية، وهو مرحلة التعليم الثانوي بالذات –مرحلة المراهقة– أنسب طرق الدراسة وأبعث ما يكون لخيالهم الخصب وعواطفهم المشبوبة واستعدادهم للتشبه بالأبطال، ولا سيما حين يكون هؤلاء الأبطال من دمهم ومن عنصرهم.

وفي التاريخ المصري كثير من الأساطير، فحول هذه الأساطير وحول الحوادث التاريخية وحول الأشخاص الحقيقيين والوهميين ينبغي أن تحاك القصص والروايات والأفلام، ويوضح ذلك كله في متناول التلاميذ والطلاب حسب أعمارهم وثقافتهم، للقراءة والمشاهدة والتمثيل.

وهذه الآثار والتماثيل والنقوش يجب عقد الصلة بينها وبين نفوس التلاميذ والطلاب بتكرار زيارتها وشرحها شرحًا وافيًا، وحينئذ تنقلب هذه المخلفات الجامدة حية نابضة تحدثهم عن نفسها

وتقص عليهم تاريخها: وتثير الروابط الكامنة بينهم وبينها، فتعيش في أوهامهم عيشة الأحياء المبعوثين.

فغذا تجاوزنا مرحلة العهود الفرعونية فيجب أن تتجه الدراسة إلى وضوح الشخصية المصرية حتى في عهود الغزو والاحتلال؛ وإلى غلبة هذه الشخصية على شخصية الفاتحين، وإلى أثر الروح المصرية والعقائد المصرية والأساطير المصرية في كل ما دخلها من فلسفات وثقافات.

وبهذا يصبح التاريخ المصري متسلسلًا، وتصبح مصر شخصية حية في وهم كل تلميذ ويحس أنه اليوم ليس غريبًا عن تحتمس ورمسيس، ولا غريبًا عن الأقوام الذين عاشوا فوق هذه الأرض الخالدة منذ أقدم عصور التاريخ.

وفي المكتبة العربية اليوم كتاب يؤدي إلى هذه الغاية أحسن أداء وهو كتاب المرحوم عبد القادر حمزة باشا «على هامش التاريخ المصري القديم».

وفي الجغرافية: يجب أن تدرس الرقعة المصرية والبيئة المصرية بتوسع: طبيعتها وجوها وحيوانها ونباتها وتربتها وكل شيء فيها، وأن يربط بينها وبين التاريخ القديم والحديث وأن يزور التلاميذ أكثر ما يمكن من الأماكن والجهات التي يرد ذكرها في اثناء الدراسة، وينبغي أن تكون الرحلات والسياحات جزءًا أساسيًا من البرنامج، ويجب أن يكون للإيحاء قيمته في أثناء دراسة الرقعة المصرية وما يتصل بها من الشرق والغرب مما أثر فيها وتاثر بها من البلاد، وأن ينصب هذا الإيحاء على تمجيد تلك الرقعة وذكرها في شيء من التقديس والتبجيل كأنها بلاد مقدسة في القلب واللسان، ويجب ألا يوجد ذلك الفاصل بين دروس التاريخ ودروس الجغرافيا، وأن يختلطا في جميع المراحل بقدر الإمكان.

وفي اللغة والأدب: يجب أن تعطى الفرصة كاملة في مرحلة التعليم الابتدائي للغة القومية وبهذا «يشير» مؤلف «مستقبل الثقافة» وهو اليوم «مستشار» الوزارة.

ولعل من الحق أن نقول: إن عقبة ستعترض المستشار الفني في الطريق، هذه العقبة هي أن قصر المرحلة الابتدائية على اللغة القومية، سيوفر عددًا من مدرسي اللغة الإنجليزية في هذه المدارس، وهذه عقبة تعد في وزارة المعارف كأداء لا سبيل إلى اجتيازها؛ وسيدافع عنها كثيرون

لا على هذه الصورة ولكن بمعاذير أخرى، فلعل الله أن يوفقه إلى استخدام هؤلاء المدرسين الذين سيزيدون على الحاجة في مواد البرنامج الأخرى، فتحل هذه المشكلة، ويفسح للغة القومية من الوقت والجهد ما يؤصلها في ثقافة التلاميذ.

أما الدراسات الأدبية فيجب أن تعني بالأدب المصري قديمة وحديثة، وأن تبرز فيه الخصائص المصرية التي خلعتها البيئة المصرية والروح المصرية على اللغة العربية وآدابها، ويجب أن يشعر الطالب أن بلاده لا تكتفي بتلقي الآداب والثقافات والفلسفات، إنما هي تمصرها، وتخلع عليها ثوبها، وتؤثر في كيانها واتجاهها، وأن يبرز ذلك كله بروزًا كافيًا.

وفي الحساب: يجب أن تصاغ رؤوس المسائل على المبادلات المصرية الحقيقية، وأن تكون ذات قيمة عملية في تعريف التلاميذ طرق الحساب التطبيقية في السوق المصرية، وأن تبعد عن الفروض المستحيلة كمسائل الأحواض والحنفيات والبالوعات: الحنفيات التي تصب في الأحواض بمعدل كذا في الساعة والبالوعات التي تفرغ هذه الأحواض بمعدل كذا في الساعة فإذا فتحت الحنفيات والبالوعات فبعد كم تمتلئ... إلخ!

وفي التربية الوطنية والاجتماعية: يجب أن يعلم التلاميذ هذا الذي يقوله الدكتور طه حسين بك من أن الطفل المصري والفتى المصري يجب أن «يحب مواطنيه ويؤثرهم بالخير ويضحي بنفسه في سبيل حمايتهم من الشر، وحياطتهم من الظلم؛ ويشعر بأن عليه واجبات قبل أن تكون له حقوق».

ولن يعلم الطالب المصري شيئًا من هذا وهو يدرس تلك النصوص الجافة الجامدة باسم التربية الوطنية، وهو لا يدرس شيئًا اصلًا عن الشعب المصري والمجتمع المصري، وهو لا يعرف شيئًا عن طبقات هذا المجتمع وتوزيع الثروة فيه وآلامه وآماله، وعلاقة الفرد بالمجموع، ووسائل الخدمة الاجتماعية... إلى آخر هذه المعلومات التي تشعره أن خلف جدران المدرسة مجتمعًا، والتي تثير في نفسه حب هذا المجتمع والعطف عليه والتجاوب معه والعمل لخيره، والتطوع لخدمته.

ثم يجب أن يخلع على كل ما هو مصري ثوب الإعزاز والإكبار، وأن يحرم كل ما يخدش الشعور الوطني أو يوحي بأن هذا الوطن أقل من الأوطان الأخرى في شيء ما من خصائص

الحياة، وأن يراعي ذلك في كل ما يقرأه التلاميذ أو يشاهدونه في المسرح والسينما أو يسمعونه في الإذاعة بكل وسائلها.

* * *

هذه أمثلة من وسائل تربية الشعور القومي، وتوجيه التعليم هذه الوجهة، وهي أمثلة مجملة قصدنا منها الغشارة السريعة لا رسم خطة مفصلة، وكان حديثنا حتى الآن مقصورًا على مراحل التعليم غير العالي أما الدراسات الجامعية والعالية، فوسائلها إلى هذه الغاية أكثر عددًا وأوسع مدى، ومتى تم وضع الأساس في المراحل الأولى، سهلت إقامة البناء في المراحل الأخيرة.

وفي اعتقادنا أن التعليم في المدارس سيبقى بلا هدف ولا ثمرة، حتى ترسم سياسة إنشائية متحررة من أثقال الماضي، ثائرة على «الروتين» الديواني والإجراءات الحكومية.

وفي وجود القائمين على شئون التعليم الآن ما يكفل الثورة والتحرر، وما يضمن هذه الاتجاه الجديد، وهو ألزم من النظر في أشياء أخرى كثيرة تشغلهم عن هذا العمل القومي الباقي للأجيال(١).

---

(١) مجلة الشؤون الاجتماعية ١٢/ ١٩٤٢.